



جاءت الغارة الإسرائيلية الأخيرة، التي لا يزال هدفها مشوّباً بشيء من الغموض، تجدد «السجال» بين بيئتي السلطة والمعارضة السورية.

فالأولى رأت أن تلك الغارة دليل لا يُدحض على أن إسرائيل تقف ضدّ نظام بشار الأسد، وتعمل ما يسعها لتمكيل ما بدأته المعارضة المسلحة وحلفها الممدّ من الدوحة إلى واشنطن.

أما بيئه الثورة فنوهت بعدم الردّ السوري الرسمي، وهو ما يرقى إلى برهان آخر على استمرار التواطؤ بين النظام الأسدّي الذي أسكن جبهة الجولان منذ 1974 وبين الدولة العبرية.

واضح هنا أن كلاً من الحجتين تبني على جزئية صحيحة، ل تستخلص منها رواية قابلة للطعن والتشكيك. لكن يبقى أن البناء على موقف إسرائيل المفترض من أجل البرهنة على صحة الموقف في كل من الطرفين هو من بقايا ثقافة سياسية قديمة تجمع بين الأطراف العربية حين تتنازع وتتصارع.

وقد تكرّست الثقافة هذه وتصلّب عودها عقداً بعد عقد، بحيث بات من الصعب علينا تعقل العالم من دون أن نحدّد مسبقاً أين تقف إسرائيل.

فإذا تراءى لوهلة أن طرفاً من الأطراف يتقدّم مع حركة أبدتها الدولة العبرية، أو يستفيد من خطوة خطتها، بادر الطرف المذكور إلى التناصل وإعادة تأويل الموقف بما يضمن له النصاعة والنقاء.

وفيما تنساق المعارضة وراء ذهنية التحرير هذه بولاء سانج للسلف الفكري الصالح، فإن السلطة تعتمد الذهنية إليها بسيئيكية بعيدة لا حاجة إلى كشف ما فيها من كذب وخداع ولا مبالغة بالعقل كما بالواقع ووقائعه.

وهذا فضلاً عن الدور النفعي الكبير الذي لعبه النظام السوري في تأسيس تلك الطريقة في النظر والمحاكمة.

إلا أن ما يزيد بؤس «السجال» هذا بؤساً أن إسرائيل ليست هنا وليس هناك. إنها مع مصلحتها الأمنية في أكثر المعاني ضيقاً، أي في أن لا تهتز جبهتها الهدّئة مع سوريا، وألا يتسرّب من سوريا سلاح كيماوي أو نظام سلاحي متقدم، وألا يصل إلى «حزب الله»، فضلاً عن الفلق الذي يسميه البعض وجود «القاعدة» وأخواتها على حدودها.

وتلك «الهواجس» الإسرائيلية تحمل أصحابها على تفضيل إضعاف النظام مع بقائه، أو إبقاءه أضعف مما كان. ذاك أن بقاءه

هو ما اعتادت عليه وجنت فوائدہ على الجبهة المشتركة في الجولان، ناهيك عن توالي هذا النظام ضبط أية راديكالية إسلامية تقول إسرائيل إنها تقلقها، فيما إضعاف النظام يتکفل بتقليص دعمه لحلفائه في «الساحة اللبنانية».

أما أن تكون لدى الدولة العبرية استراتيجية تعدد مصالحها الأمنية هذه وتتنصل بمستقبل سوريا، فهذا كرم أخلاق لا تسمح التجارب بافتراضه في الإسرائييليين حيال السوريين، أو حيال أي عرب آخرين، تماماً كما لا يمكن افتراض مثله عند أي طرف عربيٍّ حيال الإسرائييليين.

وهذا ما يفسر الدفع المتصل لتل أبيب والمقرّبين منها في واشنطن عن «ضرورةبقاء النظام السوري»، مثلما يفسر توجيهها، بين الفينة والأخرى، ضربة مذلة وموجة له.

وأسوأ مما عاد، بالمعنى النفعي للكلمة، أن هذا «السجال» السوري – السوري يتجاهل أن الهم الإسرائيلي في الموضوع السوري (الحدود، السلاح الكيماوي، «القاعدة»...) يكاد يغدو نقطة التقاطع العالمية حيال سوريا.

وفي المعنى هذا، يغدو «السجال» الذي يستغرقنا دليلاً آخر على جهد يبذل في المكان الخطأ.

الحياة

المصادر: